

الحلقة الخامسة عشرة

أمثال المسيح

برنامج أنوار كاشفة

أهلاً ومرحباً بك صديقي المستمع في هذا اللقاء الجديد من برنامج أنوار كاشفة. بدأنا قبل عدة لقاءات بالحديث عن أمثال المخلص يسوع المسيح. ويقارن المثل بين شيء مألوف للناس، وآخر غير مألوف لديهم. وذلك لإيضاح حقائق يريد صاحب المثل إيصالها إليهم.

ولقد استخدم المسيح الكثير من الأمثال، لإيضاح الحقائق الروحية، وخطة الله للخلاص. وكنا قد تكلمنا في اللقاء السابق عن مثل السامري الصالح، الذي أجاب فيه المسيح عن السؤال: من هو قريبي؟ فأوضح أن القريب هو كل إنسان آخر حتى ولو كان مختلفاً عنّا، في العرق والدين والجنس والخلفية الاجتماعية.

هل تحاول مستمعي أن ترفع من مكانتك أمام الآخرين وأن تظهر بشكل أفضل أمامهم؟ يسعى البعض إلى رفع مكانتهم الاجتماعية، أو الادعاء أنهم يتبوأون مركزاً حساساً، أو يمتلكون المال الوفير. والهدف هو أن يبهروا الآخرين ويؤثروا عليهم. وهذا يعود بدرجة أولى إلى كبريائهم.

كان المخلص يسوع المسيح مرة مدعواً إلى بيت أحد رؤساء الفريسيين - وهم من اليهود المتزمتين في تطبيق الشريعة - وكان الفريسيون يراقبونه. ولاحظ المسيح كيف أن المدعويين يحاولون أن يختاروا الأماكن الأولى لجلوسهم. فقال لهم هذا المثل: «مَتَى دُعِيتَ مِنْ أَحَدٍ إِلَى عُرْسٍ فَلَا تَتَكَبَّرْ فِي الْمُتَكَأِ الْأَوَّلِ، لَعَلَّ أَكْرَمَ مِنْكَ يَكُونُ قَدْ دُعِيَ مِنْهُ. فَيَأْتِي الَّذِي دَعَاكَ وَإِيَّاهُ وَيَقُولُ لَكَ: أَعْطِ مَكَاتَنَا لِهَذَا. فَحِينَئِذٍ تَبْتَدِئُ بِخَجَلٍ تَأْخُذُ الْمَوْضِعَ الْأَخِيرَ. بَلْ مَتَى دُعِيتَ فَادْهَبْ وَاتَّكَبَّرْ فِي الْمَوْضِعِ الْأَخِيرِ، حَتَّى إِذَا جَاءَ الَّذِي دَعَاكَ يَقُولُ لَكَ: يَا صَدِيقُ، ارْتَفِعْ إِلَى فَوْقِ. حِينَئِذٍ يَكُونُ لَكَ مَجْدٌ أَمَامَ الْمُتَكَبِّرِينَ مَعَكَ». وهنا ختم المخلص المسيح هذا المثل قائلاً: «لَأَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَضَعُ وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ» (بشارة لوقا ١٤: ٨-١١). هذه هي الحكمة العملية التي أراد المسيح تعليمنا إيها من هذا المثل وهي: التواضع.

مستمعي الكريم، لقد نصح المخلص يسوع المسيح المدعوين ألا يندفعوا إلى الأماكن الأولى في المحافل، وأن يتحلّوا بصفة التواضع. وضرب لهم مثلاً عملياً على ذلك بأن نبّههم أن ذلك الاندفاع قد يؤدي بهم إلى العكس، أي إلى خسران مركزهم الأول. ولهذا نصّحهم بأن يتواضعوا. لعل هذه ليست الحالة الوحيدة التي يحاول بها الناس أن يتبوأوا مركزاً أفضل. فهناك من يُعطي انطباعاً للآخرين أنه في مركز مهم حساس، أو أنه يملك ثروة كبيرة. وهناك من يرتدي أفخر الثياب، أو يقود السيارات الفخمة. وهناك من يحاول أن يلتصق بكبار القوم. لكن النتيجة تكون أن يأتي اليوم الذي يفضح فيه أمر هؤلاء الناس، وتبين حقيقتهم، فيشفق الآخرون عليهم، ويعودون إلى مركزهم الطبيعي.

لعلّ السؤال الآن: لماذا يحاول البعض أن يظهر على غير حقيقته؟ أو لا يعود هذا إلى طبيعة حب الظهور، وصفة الكبرياء التي تمتلكهم؟ إن الحياة تعلّمنا كما قال المخلص المسيح: أن من يرفع نفسه، لا بدّ أن يأتي فيه اليوم الذي يتضع. بينما الذي يتّضع ويعرف مركزه الحقيقي، لا بدّ أن يأتي اليوم الذي فيه يرتفع. فكم من إنسان عاد إلى حجمه الطبيعي عندما تكبر. وكم من إنسان في المقابل رُقّي في منصبه أو رُقّع بسبب تواضعه واتزانته.

لهذا قال المخلص المسيح مرة لتلاميذه: « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ فِيكُمْ عَظِيمًا فَلْيَكُنْ لَكُمْ خَادِمًا، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ فِيكُمْ أَوَّلًا فَلْيَكُنْ لَكُمْ عَبْدًا، كَمَا أَنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيُخْدَمَ، وَلِيَبْدَلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ » (بشارة متى ٢٠: ٢٦-٢٨). إن العظمة الحقيقية تكمن إذن في التواضع وخدمة الآخرين. ولقد ضرب المخلص المسيح المثال من نفسه. فهو ومع أنه كلمة الله الأزلي، المولود من روح الله القدوس، قد تواضع وأتى إلى عالمنا، وخدم الناس جميعاً. وليس هذا فحسب بل إنه قدّم نفسه فدية، أي مات على الصليب، لكي ينال الكثيرون الخلاص وينجوا من العقاب الأبدي.

صديقي المستمع، كيف يمكننا أن نتحلّى بصفة التواضع؟ وهل يكفي أن نحاول الظهور للآخرين وكأننا نتمتع بهذه الصفة؟ إن التحلّي بالتواضع لا يكون بالمظهر فقط، بل يجب أن يعبر عن حقيقة نفوسنا من الداخل. وهذا لا بد أن ينعكس على سلوكنا وتصرفنا أمام الناس.

علينا لكي نتحلّى بصفة التواضع أن نقر أولاً بحقيقة نفوسنا الخاطئة، وأن نعترف بحدود قدراتنا وسلوكنا الأدبي. هل تعلم مستمعي أن الإقرار بحقيقة كوننا خطاة وأثمة هو أكبر دليل على تواضعنا؟ فليس سهلاً على المرء أن يقر بهذه الحقيقة الأكيدة. وعندما يعترف الإنسان بحقيقة نفسه الخاطئة ويأتي إلى الله تائباً عن ذنوبه، ومؤمناً بالفادي المسيح الذي كفر عن خطايا بموته البديلي على الصليب، يكون قد خطا الخطوة الأولى نحو التواضع. وعندها يبذل الله نفسه من الداخل، ويجعله خليقة جديدة تتحلّى بصفة التواضع.

لكن علينا أن نعلم أن التحلّي بصفة التواضع كمؤمنين بالمسيح هو أمر علينا أن نسعى إليه يومياً. لأن الطبيعة الفاسدة تبقى كامنة في نفوسنا، وهي تحاول أن تظهر باستمرار وهكذا تقودنا إلى الكبرياء وحب الظهور، بكل مظاهرهما المتنوعة. ولهذا كتب الرسول بطرس من رسل المسيحية الأوائل إلى المؤمنين بالمسيح قائلاً: « وَكُونُوا جَمِيعًا خَاضِعِينَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ، وَتَسَرَّبُوا بِالتَّوَّاضُعِ، لِأَنَّ: « اللهُ يُقَاوِمُ المُسْتَكْبِرِينَ، وَأَمَّا المُتَوَاضِعُونَ فَيُعْطِيهِمْ نِعْمَةً». فَتَوَاضَعُوا تَحْتَ يَدِ اللهِ القَوِيَّةِ لِكِي يَرْفَعَكُمْ فِي حِينِهِ» (ابطرس ٥:٥ و ٦).

لقد دعانا الرسول بطرس لكي نتسربل بالتواضع أي نلبسه. ولنلاحظ قوله أن الله يقاوم المستكبرين، أما المتواضعون فيعطيهم نعمة، وهو يرفعهم في الوقت المناسب. فهل ترغب مستمعي أن تتحلّى بصفة التواضع؟ لم لا تتضع الآن أمام الله وتعتزف بذنوبك وتتنوب عنها وتؤمن بالمخلص المسيح؟